المحاضرة الثالثة

الغزل في الشعر الأندلسي

أ. م.د.معتصم كريم محيسن

الغزل في العصر الأندلسيّ

تميّز الشّعرُ في العصر الأندلسيّ بالرّقّة، وجمال الأسلوب، وعنصر الخيال، كما تميّز بتعدّد أغراضه، كالغزل، والمديح، والهجاء، والرّثاء، وغيرها، أمّا الغزل والنّسيب، فهو يتصدّر مقدّمة هذه الأغراض، وذلك بسبب توافر عدّة عوامل، منها: التّرف، وكثرة الجواري والغلمان، بالإضافة إلى الطّبيعة الأندلسيّة الخلّابة. وكانت قصيدة الغزل، غالبًا ما تُلقى في مجالس اللّهو والطّرب، وفي ليالي الأنس الّتي لا تخلو من الموسيقى والغناء. وقد اعتمد الأندلسيّون أيضًا إلى توظيف غرض الوصف إلى جانب الغزل، وغالبًا ما كانوا يقرنون هذين الغرضين معًا، فعندما يريد الشّاعر أن يتغزّل بامرأة، كان يلجأ إلى وصفها بأوصاف الطّبيعة، فالمرأة عندهم صورة من محاسن الطّبيعة.[٢]

أنواع الغزل في الشّعر الأندلسيّ

لأنّ الغزل من الأغراض الشّعريّة الّتي كثر النّظم فيها قديمًا وحديثًا، فقد تعددت أنواعه، كالآتي:[٣]

أوّلًا: الغزل الطّاهر العفيف، يصوّر فيه الشّاعر خلجات النّفس، وفرحة اللّقاء، ويصف ما يلاقيه من ألم وعذاب الغرام، ولوعة الحبّ، ويُطلق على هذا النّوع من الغزل أيضًا اسم الغزل الموضوعيّ؛ وذلك لأنّ الشّاعر المتغزّل لا يتطرّق إلى ذكر جوانب حسّيّة في محبوبته.

ثانيًا: الغزل الحسِّيّ، وهو ضرب من الغزل، يلجأ فيه الشّاعر إلى التّطرّق إلى جوانب حسّيّة ونفسيّة في المحبوبة، كأن يتغزّل بجمال عيون محبوبته، وطول قامتها، وجمال مبسمها، وخصرها وحركتها، وحديثها، وقد يلجأ الشّاعر أيضًا إلى تصوير العوائق الّتي تحول بينه وبين محبوبته، كالأهل والوشاة والعذّال، فيبدي الشّاعر تصويرًا لتحايله من أجل رؤيتها ليلًا والنّاس نيام، ويختلس لوصلها اختلاسًا.

ثالثًا: الغزل بالمذكّر، وهو نوعٌ من الغزل، عرفه العرب في العصر العباسيّ، نتيجة للاختلاط بأقوام غير عربيّة، وكثرة الجواري، إلى أن انتقل إلى الأندلس، والّذين لم يجدوا فيه عيبًا، فقد كان أمرًا طبيعيًّا، نظم فيه الشّعراء والفقهاء، فلم تكن المنزلة الاجتماعيّة والدّينيّة تمنعهم من الميل إلى الغلمان والغزل بهم. وممّا ساعد على انتشاره: تردّد الشّعراء إلى الحانات، بالإضافة إلى وجود الغلمان في البيوت للخدمة، فضلا عن قيام بعضهم بالطّلب من الشّعراء بالتّغزّل بغلمانهم، وقد يكون هذا الانتشار لهذا النّوع من الغزل راجعا إلى التّقليد الشّعريّ، دون أيّ تحرُّج.

شعر الغزل عند الشّاعرات الأندلسيَّات

وقفت الشّاعرات الأندلسيّات إلى جانب الشّعراء، في كتابة شعر الغزل، حيثُ يُشكّل الغزل ثلث شعرهنّ، وقد بلغ عدد الشّاعرات ما يُقاربُ خمسًا وعشرين شاعرة.[٤]

ومن اللّافت للنّظر أنّ الشّاعرة الأندلسيّة تعاملت بنديّة مع حبيبها؛ إذ تغزّلت به في شعرها، كما كان الشّاعر يتغزّل بحبيبته، وأفصحت عن مشاعرها، وتجرّأتْ في إظهار لوعتها دون خوفٍ أو خجل. ومن ذلك ما قالته الشّاعرة حفصة بنت حمدون:[٥]

لي حبيب لا يَنْثَني لعتابٍ وإذا ما تركته زادَ تيها

قال لي هل رأيت لي من شبيهٍ قلت أيضًا وهل ترى لي شبيها

واتّسم شعر الغزل لدى شاعرات الأندلس برقّة الطّباع والمشاعر. فقد كنّ يملن إلى استخدام معجم شعريّ عاطفي، وتكرّرتْ لديهنّ ألفاظ الحبّ، مثل: حبّي، الحبّ، لوعة الحبّ، حبيب، وجد، صبّ، رام، قلبي، أغار، عشقت، هام، الغرام، شغف الفؤاد، كلّفت بكم، أهواه، أشتاق، الشّوق، التّشوّق. وألفاظ الفراق مثل: الصبر، تظمأ، نازح، ينساكم، موجع القلب، الحزن، أشجاناً، أبكي، حنيناً، الحنين، بكى، انفصال، يأس، الهم، الممات، الموت، وحشة، ودعتهم، ودع، فراقكم، التفرق،

فارقني، هجران، يشكو، البين، البعد، النوى، بعدك. وألفاظ العتاب: عذري، الملامة، عتاب، اعتذاري، الذّنوب.[٦]

مختارات من شعر الغزل

من النّماذج الشّعريّة الشهيرة على الغزل، قصيدة "سلوْتمْ وبقيْنا نحنُ عشّاقا" لابن زيدون. يذكرُ فيها ولّادة ويتشوّق إليها، وقد نظمها على بحر البسيط.[٧]

إنّــي ذكرتــكِ بالزَّهــراء مشــتــاقـــا والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقـــا

وللنّـــسيـــمِ اعتــلالٌ في أصائلـــــــهِ كـأنّـــهُ رقَّ لــي فاعتــلّ إشْـفـاقـــــا

والرَّوض عن مائــهِ الفضـِيّ مبتســمٌ كمــا شقّقـــــتْ عن اللّبــاتِ أطـواقا

يومٌ كأيّامٍ لــذاتٍ لنــا انصــرمـــــتْ بتنــا لهــا حيــن نام الدّهــر ســرّاقـــا

نلهو بما يستميــلُ العيــن مــن زهـــرٍ جال النّدى فيه حتّـــى مــال أعنـــاقـــا

كأنّ أعينــهُ إذ عــاينـــتْ أرقـــــي بكـتْ لما بـي فجــال الدّمع رقـراقـــا

وردٌ تألّــق فـــي ضاحي منابتـــــِهِ فازدادَ منه الضحى في العينِ إشــراقـا

ســـرى ينـــــافحـُه نيلوفر عــبـــقُ وسنـــان نبـــهَ منـــهُ الصُّبـحُ أحـداقـا

كلٌّ يهيـج لـنـا ذكـرى تشـوقـّـنـــا إليك، لم يعدْ عنها الصدرُ أن ضـاقـــا

لا سكـنَ الله قلبًـا عـقّ ذكـركـــم فلـم يطـرْ بجـنـاحِ الشّـوق خفّـاقـا

لو شاءَ حملي نسيم الريحِ حين سرى وافـاكـمُ بفـتـــى أضنـــاهُ مـا لاقـــى

لو كانَ وفى المنى في جمعنا بكـــمُ لكـــانَ من أكـرمِ الأيّـــام أخـــلاقـــا